الفصل التاسع

معاناة الأبرياء

منـذ الأيام الأولى للمسـيحية، عـرف اللاهوتيين الإنجيل وفسـروه بكل تأثيـر، ودافعوا عنه بالمنطـق والذكاء، لكن، في واقع الحـال، كان لعمل هؤلاء الدارسين المشهورين مساهمة في انتشار المسيحية فعلياً، أقل على الأرجح من البرهـان المنظور لقوتها كما برز بين معتنقيها الأكثر تواضعاً. لقد ظهر الإيمان الجديد بأنه معقول ومقبول منطقياً، كما أنه لم يكن أقل فعالية في برهـان صدقه وصحته، وذلك من خلال قدرته على تغيير حياة الناس العاديين مـن كل فئات المجتمع ومرتباته، وقد ظهرت جـدارة هذا الإيمان في ما تحلى به المسـيحيون الأولون من خلق مستقيم ومحبة رائعة في مجال تعاملهم مع جيرانهم، كما أن هذا الإيمان بان جذاباً في عطفهم على المحتقرين والضعفاء مـن الناس، أما قدرته، فقد برزت قبل كل شـيء فـي مواجهتهم الاضطهاد بثبـات لا يتزعـزع، وبالتأكيـد، كان أولئك المسـيحيون على اتصـال بالكائن الإلهي ذي القوة والسـلطان العظيمين، لقد دقر لهذا الإيمان الجديد بشـكل واضح أن يبطل تلك الفلسفات المعيبة، والديانات التي أثبتت أنها خيبة أمل محزنة للأجيال الماضية، لكي يحل محلها.

وعلى العكس ما يمكن أن نتصور، كان نمو الكنائس يزداد سـرعة على قدر ما يعنـف الاضطهاد ضدها، وقد اعتبرت السـلطات في شـمال إفريقيا أن المسيحية تشـكل تهديداً للاسـتقرار وأنها تعمل في جميع أشكالها ضد القانون، وذلك على مدى السـنوات الثلاث مئـة الأول من وجودها، وكان أتباع المسـيح، في الواقع، يعتبـرون من الخارجين على القانـون، وهم معرضون في أية لحظة للمطاردة، وذلك من حكام وولاة القناصل الرومان، كانت تمر سـنين طويلة لم يكن يحصل فيها أي شـيء يعكر نمو الكنيسة الهادئ، ثم فجأة، حـين تجمح نزوة إمبراطور أو حاكم مـا، كان يصيبهم اضطهاد عنيف، وكان كل مسـيحي مؤمن يعلم، أنه عاجلاً أم آجلاً، قـد يأتي ذلك الوقت الذي فيه يشهد للمسيح وذلك على حساب حياته.

كانت كنائس شمال إفريقيا قد ألفت كتابات العهد الجديد وما دونه من

أعمال الشهادة، كاستشهاد استفانوس ويعقوب. كما وصلتهم فيما بعد أخبار عن الإمبراطور الجنون نيرون (Néron)، الذي حرضه غيظه المتوحش ضد المسيحيين في روما، وعن ادعائه الكاذب بأنهم أضرموا النار في روما ما أدى إلى هدم جزء كبير من المدينة. لقد علموا بموت البشيرين بطرس وبولس اللذين من المحتمل أنهما قتلا في هذا الوقت. وكانوا يسمعون بحوادث الاستشهاد التي كانت تحدث دورياً وبين الحين والآخر، في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية، كاستشهاد إغناطيوس (Ignace)، ناظر الكنيسة في أنطاكية، والذي سيقَ إلى روما و قُتل هناك سنة 110م. واستشهاد يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) في العام 165 للميلاد في روما أيضاً. ولكن لم يكن هناك شيء تجاوز أو حتى وصل إلى المشهد المأساوي لاستشهاد بوليكاربوس (Polycarpe) في أيامه الأخيرة، وهو ناظر كنيسة سِميرنا (تركيا). وهذه الحادثة الأليمة مذكورة في رسالة طويلة كتبها المؤمنون في تلك المدينة.

كان بوليكاربوس في أيام شبابه من تلاميذ الرسول يوحنا، وصديقاً لإغناطيوس. وعندما أصبح شيخاً مسناً كانت كنائس المنطقة تنشد في كثير من الأحيان استشاراته الحكيمة و المحبة. وغالباً ما كان يُدعى لحل الخلافات التي قد تنجم من جرّاء اختلاف وجهات النظر و الآراء. عاش شيخوخة سعيدة وحافلة بالإنجازات في وسط الجماعة المسيحية التي أحبّته وكرّمته.

اهتزت الكنيسة في سِميرنا بعنفٍ عندما ألقت السلطات الوثنية، وبشكلٍ مفاجئ، القبض على عددٍ من أعضائها. وجرى إعدامهم بسبب الإيمان. وقد اجتمع كل من اليهود و الوثنيين ليستمتعوا بالمشهد. وفي خضّم هذه العاصفة الهوجاء، راح بعض المتفرّجين يطالبون بقائد الكنيسة هاتفين: «فتّشوا عن بوليكاربوس.»

وهكذا تابع مؤمنو سِميرنا بكل أمانة، شرح ما حدث بعد ذلك، فكتبوا: «عندما سمع بوليكاربوس، الرائع للغاية، بهذا الأمر لأول مرة، لم يرتعب أو

يفزع، بل رغب في أن يبقى في المدينة إلاّ أنّ غالبية المؤمنين حاولوا بإلحاح أن يقنعوه بأن يترك المكان، فانسحب إلى مزرعة صغيرة لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كان فيها. وكان يقضي وقته هناك مع نفرٍ من رفاقه، مشغولين ليل نهار بالصلاة لأجل الجميع و للكنائس في كل أنحاء العالم، كما كانت عادته دائماً.» وبعد بضعة أيام، انتقل إلى مزرعة أخرى قريبة، رافضاً بثبات الفرار من الجوار، كان يتوقع بالكلية أن تقبض عليه السلطات الرومانية في أية لحظة، وكان ينتظرهم بهدوءٍ تام.

وفي وقتٍ متأخر من إحدى الليالي المظلمة، وصل جنود إمبراطوريون إلى المزرعة، وكان بوليكاربوس يرتاح في الغرفة العلوية، وإذ سمع أصواتاً وصخباً في الطابق السفلي، قال باطمئنان: «لتكن إرادة الله.» ثم نهض و طلب أن يُحضر الطعام والشراب المنعش للجنود، وسألهم أن يمهلوه ساعةً واحدة فقط ليصلّي. فعندما رآه الجنود، تأثروا من شيخوخته وثباته، كما دهشوا من افتعال مثل هذه الجلبة والضجة بسبب هذا الرجل الطاعن في السن. «وقف وصلّى.» أردف الصحابة المسيحيون في سِميرنا قائلين: «كان ممتلئاً من نعمة الله تعالى، بحيث لم يكفّ عن الكلام خلال ساعتي الصلاة، بينما كان الذين حوله مشدوهين متعجبين. لقد أسف الرجال الجنود، على أنهم جاءوا يطلبون هذا الرجل الجليل والعجوز المهيب.» لقد صلّى للجميع، ولإخوته ولأخواته في المسيح، ولكل من خطر بباله من الصحاب والأصدقاء، ذاكراً إياهم بأسمائهم. ومن ثمّ أجلسوه على حمار، وساروا به يقصدون المحكمة في سِميرنا.

وعندما اقتربوا من المدينة، لاقاه رئيس الشرطة هيرودس و والده صدفةً في الطريق، فأخذا بوليكاربوس في عربتهما وحاولا ثنيه عن عناده ورفضه القول: «مولاي القيصر»، ورفضه إنقاذ حياته بتقديم القرابين و التقدمات للآلهة الوثنية. ومع ذلك، فقد أصرّ الشيخ الجليل على الرفض بأدبٍ جم. وأخيراً، حين يئسوا من ثباته، وقد نفد صبرهم، دفعوه بغضبٍ إلى خارج عربتهم، وقع بوليكاربوس بقوةٍ إلى الأرض فجرحت رجله. وقد استخفّ بجرحه، وبقي سائراً في الطريق مع حرسه، حتى وصلوا أخيراً إلى الملعب،

وهـو الميـدان الذي تجري فيـه المباريات وتُعرض فيه المشـاهد. ثـم تابع كاتب الرسـالة يقول: «الآن. وبينما كان يدخل المدرج. جاءه صوتٌ من السماء يقول له: «تقو يـا بوليكاربوس. وكن رجلاً.» لم يرَ أحدٌ المتكلم. ولكنّ ذلك الصوت سـمعه الإخوة المؤمنون الذين كانوا حاضرين هناك.» وعلا صوت المحتشـدين حتى أصبح من الصعب سـماع ماذا كان يجري. سـأل القاضي بوليكاربوس أن يقسـم بقوة قيصر الإلهية. وأن يلعن المسيح. فأجاب بوليكاربوس. وكان جوابه واحداً من كنوز التاريخ المسـيحي: «لقد خدمت المسيح ستةً وثمانين سـنة. ولم يخذلني المسـيح أبداً. فكيـف تريدني الآن أن أجدّف على اسـم مليكي ومخلّصي؟»

أنـذره القاضي ثانيةً. فـازداد بوليكاربوس صلابةً وشـدّة. وقال: «إن كنت تتوهم. أنني سأقسـم بقدرة قيصر الإلهية كما تقول. متظاهراً أنك لا تعرف من أنا. فاسمع جيداً: أنا مسيحي. و إذا كنت مستعداً وراضياً على أن تتلقّن التعليـم المسـيحي. فامنحني يوماً واحـداً وأصغِ إليّ.» حينئـذٍ قال الوالي: «إذاً أقنع الناس الذين هنا.» فأجاب بوليكاربوس: «لقد حسـبتك مستحقاً أن أتكلـم معك. فـإن عقائدنا تعلّمنا أن نخضع للسـلاطين وللذين هم في منصب. لأنهم مقامون من الله. أمّا هؤلاء الرعاع. فلست أجدهم يستحقون أن أقـدّم دفاعـي أمامهم.» هنا. أنـذره القاضي ثانيـةً طالباً منـه أن يقرّب التقدمات للوثن. مهدداً إياه بالوحوش الكاسرة في حال استمرّ رفضه. فقال بوليكاربوس: «أرسـل في طلبها. إن الارتداد من الأحسـن إلى الأسوأ هو أمر مرفـوض عندنا. ولكنّ التغيير من الباطل إلـى الحق هو العمل النبيل.» عند ذاك هدده القاضي بأن يضرم به النيران وهو حي. «أنت تهددني بنار تشـتعل لفتـرة قصيرة.» أجاب بوليكاربوس. «ولكنك لا تعلم شـيئاً عن النار الأبدية التي أُعدّت للأشرار. والآن لماذا تتوانى. جئ بما تشاء.»

عندهـا نطق القاضي بالحكم على بوليكاربوس. فأعلن المنادي الذي يذيع الأحـكام من منتصف المدرج قائلاً ثلاث مرات: «لقـد اعترف بوليكاربوس أنه مسيحي!» فجُهّز العمود الذي يُشدّ إليه المحكوم بالموت حرقاً. و كُدّست حوله كومة من الخشب. مشـى بوليكاربوس بهدوء وتؤدة إلى المكان. و وقف قبالة

العمود. وبينما اقترب منفّذو الحكم ليسـمّروه على العمود حتى لا يسقط. طلب بوليكاربوس ألاّ يكلّفوا أنفسـهم كل هذه المشقة بالقول: «ذاك الذي يعطيني القوة لتحمّل اللهب. هو نفسه سيمكّنني من الوقوف بثبات.» لذا فقد رُبط بحبلٍ فقط. وإذ اندلعت النيران بقوةٍ حوله. سُمع صوته وهو يقدّم الشكر لله الذي سمح له بأن يعاني الآلام. كما عانى مخلّصه. من أجل الحق. ورفع عينه إلى السـماء قائلاً: «أيها الرب القادر على كل شيء. أشكرك لأنك اعتبرتني مستحقاً. في هذا اليوم. وفي هذه الساعة. أن أشارك مع الشهداء في القيامة للحياة الأبدية.» وبعد هذا رأوا اللهيب يعلو ويتصاعد حوله. من دون أن يظهر على بوليكاربوس أنه يتأذى. عندئذٍ غمد أحد العسـاكر سـيفاً فـي جنبـه. وللوقت. اندفع الدم يتدفـق من جنبه وكأنه جـدول من الجداول. سـبّب في إطفاء النـار. إلاّ أن الوالي كان قد قرر أنه لا يحق للمسـيحيين أن يكون لهم الكلمة الفصل. ولا أن يتسـلّموا جثـة قائدهم الموقّر. لذلك. أمر بإضرام النار ثانيةً. وهكذا دخل بوليكاربوس إلى فرح سيده.[105]

لقد اتّحد كل من اليهود والوثنيين والجماهير والسلطات. بقلبٍ واحد وفكرٍ واحد. لإبادة الجماعة المسـيحية. إلاّ أن مثل هذا العمل كان بعيداً كل البعد عن متناول أيديهم. «لم يعلم هؤلاء.» تقول الرسـالة من سِـميرنا. «أننا لا نسـتطيع أبداً أن نتخلّى عن المسيح. الذي تألّم لتأمين الخلاص لأولئك الذين ينالون الخلاص من العالم بأسره. وأننا لا نتمكن أبداً من عبادة أي شيء آخر.» وبموت بوليكاربوس في العام 156 بعد الميلاد. توقّف اضطهاد المسيحيين في سِـميرنا. لقد فشلت هذه الأسـاليب القمعية تماماً في إرهاب الكنيسة أو ترعيبها. والآن جاء دور بلاد الغَال (Gaule) وشمال إفريقيا.

ظهـرت أولى بـوادر عملية اضطهاد المسـيحيين في مناطق الشـواطئ الجنوبيـة مـن البحر الأبيض المتوسـط. في أثناء حكـم الإمبراطور ماركوس أوريليوس (Marc Aurele) وابنه كومودوس (Commode) في الفترة بين العامين 177 و192 ميلادية. وفي هذا الوقت أيضاً. وصلت الأخبار إلى كنائس

105- ورد النص المعاصر (Martyrium Polycarpi ANF Vol.I pp.37 ff.) للحصول على مقاطع من ترجمة أحدث راجع Bettenson DOTCC pp. 9-12

إفريقيا الشمالية عن الحوادث التي تقع في بلاد الغال (فرنسا). تلك الحوادث التي سلّطت الضوء على الشعور الذي كان سائداً في الإمبراطورية الوثنية في ذلك الوقت. ففي مدينة ليون (Lyon) وفيَان (Vienne) انتشرت شائعات تدّعي حصول أشياء بغيضة في الأوساط المسيحية: زنا المحارم، قتل وحتى أكل لحوم البشر. ونتيجةً لهذه الشائعات الكاذبة، أُبعد المسيحيون عن الأماكن العامة، والحمامات والأسواق، ومُنعوا من الظهور علناً. وفي العام 177 ميلادية، عُذّب عدد من الخدام والعبيد العاملين في بيوت المسيحيين، وذلك بأسلوبٍ بشع في محاولة من المعذِّبين لتثبيت هذه التهم الكاذبة. وهكذا تمكّنوا بحدّ السيف من انتزاع شهادات واعترافات رهيبة. من هؤلاء القوم الضعفاء والحائرين في ساحة المدينة. وقد أثار الرعاع من جراء ذلك مشاعر بعضهم بعضاً إلى درجة الجنون والهوس. كان المسيحيون يُجرّون إلى الساحات العامة، حيث كانت الحشود تزداد غضباً لدى سماعها التهم الملفّقة على المسيحيين. ولكن، بالرغم من شتى ضروب التعذيب الرهيبة، لم يجد الحكّام دعماً لاتهامهم المسيحيين بالخيانة العظمى ضد الإمبراطور.

أُجبرت إحدى الجواري المدعوة بيبلياس (Biblias)، على الإدلاء بتصاريح كاذبة ضد العائلة المسيحية التي كانت تعمل لديها، ثم سيقت الجارية ثانيةً لتدلي بتصريحات إضافية ضد هذه العائلة. ولكنها في هذه المرة وقفت ضد معذبيها وعارضتهم قائلةً إنها هي أيضاً مسيحية، وإن ما أدلت به في السابق ضد هذه العائلة كان ادّعاءً لا أساس له من الصحة، وقالت، إن هذه العائلة بريئة من أية جريمة. فماتت هذه الجارية شُجاعةً ثابتة الإيمان. كذلك، فإن أحد المعاونين في مدينة ليون، وكان يدعى سانكتوس (Sanctus)، ألقي القبض عليه، وصُبّ النحاس الساخن على جسده، لكنه لم يقل إلاّ عبارة واحدة ردّدها باستمرار، وهي: «أنا مسيحي.»

وفي مدينة مجاورة، رفض أحد الشباب الأغنياء، ويُدعى سيمفورينوس (Symphorinus) أن ينحني أمام صنم الإلهة سِبلي (Cybele)، فحُكم عليه بقطع رأسه. وكانت أمه، هي الأخرى، مسيحية، ولم تُظهر أية علامة من علامات الخوف أو الفزع. وعندما كان في طريقه إلى منصّة الإعدام،

صرخت إليه قائلةً: «اثبت يا بنيّ، ولا تخف من الموت الجسدي الذي سيؤدي بك بكل تأكيد إلى الحياة. انظر إلى الرب الذي مُلكه في السماء. إنّ حياتك الأرضية لا تؤخذ منك اليوم، وإنما يحوّلها الرب إلى الحياة الأبدية المباركة في السماء.»

توفّي عدد كبير من المؤمنين في سجون ليون خلال تلك الحقبة من الزمن، وذلك من دون إجراءات قضائية أو محاكمة. أمّا أولئك الذين سَلموا وعاشوا، فقد وضعوا تقريراً لما حصل فتحدّثوا بكلمات مؤثرة عن قائد مسنّ في الكنيسة. «والآن، جاء دور بوثينوس (Pothinus) المبارك الذي كان مؤتمناً على خدمة النظارة في ليون، وكان قد تجاوز التسعين من عمره، وبات ضعيف الجسم و واهناً جداً... لقد استُدعي إلى كرسي الحكم يحرسه قضاة المدينة وكل أسافل الناس الذين كانوا يصرخون ويصفرون مستهزئين بجلبة كبيرة. وإذ سأله الحاكم من هو إله المسيحيين؟ أجابه: «إذا كنتَ أهلاً وجديراً فأنت ستعرف بنفسك.» وعندها تمّ جرّه بلا شفقة، وبدأ المتجمهرون يركلونه ويلطمونه، وأمّا الذين كانوا بعيدين عنه، ولم يتمكنوا من أن تطاله أيديهم أو أقدامهم، فقد كانوا يقذفونه بما عندهم من حاجات أو أشياء، وكان يتنفس بصعوبة حين ألقي في السجن، ولم يمرّ يومين حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

لقد عُذّبت جارية أخرى تُدعى بلاندينا (Blandine)، خلال نهار كامل، وبوحشية رهيبة أذهلت الجنود: كيف يمكن لهذه الجارية أن تبقى حيّة بعد كل هذا التعذيب الوحشي المروّع؟! من ثم جرى ربطها إلى عمود، وعُرضت للوحوش الكاسرة، وكان يُؤتى بها يومياً لترى العذاب الذي يكابده أصدقاؤها. وكانت ترفع صوتها باستمرار مصلّية من أجلهم جميعاً. ثم رُبطت أخيراً بشبكة وألقيت أمام ثور هائج استمر ينطحها حتى استشهدت في المدرج، رافضةً أن تقول كلمةً ضد المسيحيين. لم يكن مسموحاً بأن تُدفن جثث الشهداء، وإنما كانت تُحرق حتى تصبح رماداً، وأخيراً تُلقى في نهر الرون (Rhone).

إنّ ما لدينا من قصص مكتوبة عن هؤلاء الشهداء في ليون و في فِيان،

تكشف الستار عن الروح المسيحية الرائعة التي كان المسيحيون يتحلّون بها. فلم يُظهر هؤلاء أية علامة من علامات المرارة أو الحقد على أولئك الذين كانوا يضطهدونهم، ولا ضدّ أي من أولئك الذين ادّعوا عليهم زوراً وبهتاناً، بجرائم لم يرتكبوها. لقد كتبوا: «ليس هناك شيء يخيفنا حيث يكون حب الآب السماوي، ولا شيء يؤلم، ما دام المسيح يشرق علينا بمجده.» كذلك، لم يدينوا إخوتهم وأخواتهم الضعفاء الذين لم يستطيعوا تحمّل معاناتهم، بل استسلموا إلى رغبات معذبيهم. بل أظهروا لهم على نقيض ذلك حناناً رائعاً، مصحوباً باتضاع فريد من نوعه. وماذا بعد. فإن هذه الحوادث كلها تؤكّد لشعب بلاد الغال أن المسيحيين لم يكونوا مجرمين. فلم يثبت أنهم أذنبوا بأي من الأفعال الشائنة، ولم يتمكن أحد من إخافتهم بالشكل الذي يجعلهم يتنكرون لإيمانهم الذي يثقون بأنه حق.[106]

من ثم انتقل مركز الأحداث عبر البحار، قاصداً الولاية الرومانية في إفريقيا البروقنصلية. حدث ذلك في وقت دُعي فيه مسيحيّو مدينة سكيليوم (Scillium) ليعطوا حساباً عن أنفسهم. ولقد كان هناك سبعة رجال وخمس نساء، تشهد أسماؤهم أنهم من خلفية أمازيغية وفينيقية، ومن خلفية بونية. يبرز أحدهم، ويدعى سبيراتوس (Speratus) في الوثيقة المكتوبة. ولا نعلم بالتأكيد إن كان هو السبب الذي من طريقه جاء الآخرون إلى الإيمان أم لا. إلا أنه يتبيّن بوضوح أنه كان قائد هذه المجموعة الصغيرة الشجاعة. كان في حوزتهم رسائل الرسول بولس. ويظهر جلياً أنهم قرأوها وقرأوا نصوصاً أخرى من الكتاب المقدس بشغف وحرص بالغين. وقد ألقي القبض عليهم في العام 180 ميلادية في مدينتهم (بالقرب من سبيطلة في تونس). وسيقوا للاستجواب أمام حكام قرطاجة.

106- NAPNF Series 2 Vol. I (Eusebius Eccles. Historia V: chap. 1)
Bettenson DOTCC pp. 12 -13
Schaff HOTCC Vol. II. pp. 55 -56
أظهر مسيحيو ليون وفيان تعاطفاً واضحاً مع المونتانيين. لقد حثّوا كنائس فريجية وروما على عدم إطفاء الروح القدس باتخاذهم إجراء قاس ضدّ المونتانيين الذين كانوا حاضرين في كنائس الشرق.

تبدأ تفاصيل هذه الدراما الحيّة بوجود جمهور السكيليوميين الإثنا عشر القائمين من قبل في قاعة المحكمة، وبحضور الوالي ساتُرنينوس (Saturninus). ثم يبدأ الاستجواب الذي سُجّل بتفاصيل صحيحة كاملة. كان الوالي إنساناً لطيفاً وعازماً على أن يقوم بواجبه بالرغم من الاشمئزاز الذي يشعر به من جراء هذه الوظيفة الكريهة كمستنطق. ثم راح يدير محضر الجلسة بتحفظ متّزن، وهو رابط الجأش هادئ. ومن كلماته الأولى أظهر استعداده لأن يكون متساهلاً وليّناً باسم الإمبراطور، إذا ما أظهر المسيحيون عقلانية واعتدالاً. ومن جهته، أكّد سبيراتوس براءتهم من أية جريمة. عندئذٍ حاول الوالي أن يعيده إلى موضوع الإخلاص والولاء للإمبراطور، فأجاب سبيراتوس: «لم نقم بأي عمل شرير، ولا اشتركنا في أي عمل سيّئ. لكن عندما عوملنا بقسوة قدّمنا تشكراتنا، وذلك لأننا نحترم الإمبراطور الذي نحن له ونجلّه.» فحاول الوالي سبيلاً آخر، وقال: «نحن أيضاً متدينون، وإن ديننا مستقيم، ونحن نأخذ أقسامنا من القدرة الإلهية لسيّدنا الإمبراطور، ونصلّي من أجل سلامته، وعليكم أن تفعلوا الشيء عينه.» تمسّك سبيراتوس بكلمة نطق بها الموظف الرسمي، وهكذا خاطبه بالقول: «إذا ما أصغيت إليّ بصبر، فإنني سأشرح لك أسرار الاستقامة الحقّة.» عند ذاك انتصب الوالي من مقعده وقال: «إن كل ما تريده هو مهاجمة ديننا، وأنا لن أصغي إليك. كل ما أريده منك هو أن تقسم بالقوة الإلهية لربنا الإمبراطور.» أجاب سبيراتوس: «أنا لا أمجّد إمبراطورية هذا العالم، ولكن عوضاً عن ذلك فأنا أخدم الإله الذي لم يره أحد، ولا يمكن أن يراه بالعين المجرّدة. أنا لم أرتكب أية سرقة، وإذا ما اشتريت أيّ شيء، فإنني أدفع ما عليّ من ضريبة، لأنني أمجّد ربّي ملك الملوك وإمبراطور كل الأمم.»

عاد الوالي إلى هدوئه من جديد، واستدار بوجهه عن هذا الإنسان العنيد المستعصي إلى أصدقائه، وحاول الدخول بينهم وبين قائدهم آملاً أن يكون انقيادهم بالأمر الأسهل. فاستحثهم قائلاً: «اتركوا هذا الإيمان، ولا تشوشّوا أنفسكم بهذه الحماقات.» إلاّ أنه وجد الآخرين مملوئين عزماً وإصراراً كسيّدهم. وأخيراً، اضطرّ أن ينطق بالحكم القانوني، ولكنه منحهم فرصة،

بإيقاف التنفيذ لمدة ثلاثين يوماً عساهم يرغبون في إعادة النظر. رفضوا قبول التأجيل، مؤكّدين أنهم عازمون على أن يبقوا مسيحيين: «نحن لا نخاف أحداً،» قال كتّينوس (Cittinus) «ما دام ربنا وإلهنا موجوداً في السماء.» وأضافت دوناتا (Donata): «نحن نجلّ قيصر كقيصر، ولكننا نخاف الله وحده.» وقالت فستيا (Vestia): «أنا مسيحية.» فأضافت سيكوندا (Secunda): «وأنا كذلك، وهذا ما أريد أن أكونه دائماً.»

لم يُقل الشيء الكثير في ما بعد، وهكذا حُكم عليهم بالموت. وفي المستندات الحكومية الرسمية، تمّ شرح الجريمة التي اتّهموا بها، من دون إدانتهم إدانة متوحشة عنيفة. وقد سُجّلت وقائع الحكم بهدوء وعلى الشكل التالي: «لقد اعترف كل من سبيراتوس ونارتزالوس (Nartzalus) وكتينوس ودوناتا وفستيا وسيكوندا والآخرين بأنهم يعيشون بموجب الممارسة المسيحية، وقد مُنحوا فرصة ليعودوا إلى الديانة الرومانية، ولكنهم رفضوا هذه الفرصة بعناد. لقد حكمنا عليهم بالإعدام بحد السيف.» فعلّق سبيراتوس بالقول: «نشكر الله.» وأجاب نارتزالوس: «في هذا اليوم نكون شهداء في الجنة. الشكر لله.» عندها أعلن المنادي الحكم. فهتف المتهمون جميعاً: «الحمد لله.» وهذا كل ما كان في الأمر. ووصلت القصة إلى نهايتها بهذا البيان البسيط: «وبهذا تُوّج الجميع بتاج الشهادة، وهم الآن يملكون مع الآب والابن والروح القدس من الآن إلى أبد الآبدين آمين.»[107]

اتّسمت هذه الرواية في كل سياقها، ببساطتها الصارخة، وبدقة التفاصيل التي قدّمت وصفاً حنوناً رقيقاً. لقد قال كل من المشاركين ما كان عليه أن يقول، والقصة تأخذ مساراً حتمياً، والنهاية لا مفرّ منها. ولدى ملاحظتنا لأشخاص هذه الدراما، يمكننا أن نرى بعض القوى التحتية في العمل: نزاع لا يقبل بأي حلّ أو تسوية بين نظرتين متعارضتين إلى العالم، عدم تفاهم أساسي بين مجموعتين من أصحاب الضمير المخلصين والنزهاء الذين بحكم الواجب أو الضمير، وجدوا أنفسهم يقفون أحدهما ضدّ الآخر. فقد وجد كل من خدّام المسيح وخدّام الإمبراطور أنفسهم في حالة خلاف،

107- Monceaux Tome I pp. 61 ـ70.

ومع ذلك لم يشعر أحدهم بأي شعور عدائي تجاه الآخر.

لقد أقيم مبنى كنيسة في ما بعد، في موقع مدافن الشهداء، ومن الممكن أن تكون بقاياه هي التي وُجدت في غرب قرطاجة قرب القرية الصغيرة دوار الشط. ومعروف أن كثيرين غيرهم قد استشهدوا، خلال هذه المدة عينها، في بقاع أخرى من إفريقيا الشمالية.

بعد ثلاثين سنة أطلّ الاضطهاد برأسه البشع من جديد. وفي هذه المرة كان بإلهام إنسان أمازيغي صرف. إنه الإمبراطور سِبتيميوس سِفيروس وهو الإفريقي الوحيد الذي لبس اللباس الأرجواني الإمبراطوري. كان سفيروس مواطناً من مدينة لبتيس ماغنا (Leptis magna)، وهي بالقرب مما ندعوه الآن طرابلس الغرب. وقد حكم هذا الرجل الغريب روما لثماني عشرة سنة، من العام 193 ميلادية وحتى وفاته سنة 211 ميلادية، بعيداً عن بلده في مدينة يورك (York) الانكليزية. ويصفه الكتّاب الرومانيون «بالبربر» الذي تعلّم اللاتينية جيداً، ولكنه لم يفقد قط لهجته الإفريقية. وفي سنوات حكم سفيروس الأولى، كان يعطف على المسيحيين ويرفق بهم، لأنه كان يعتقد أن شفاءه من مرض خطر، كان بسبب مسحة من الزيت والصلوات التي قدمها له عبد مسيحي اسمه بروكولوس (Proculus). وقد سلّم تعليم أولاده وتثقيفهم إلى مربّية مسيحية، ومعلّم مسيحي أيضاً. على أي حال، تزوج سفيروس من ابنة كاهن إله الشمس، الذي كان يعبد في مدينة إميسا (Emese) في سوريا. وقد مزج بين العبادتين، العبادة المسيحية وطقوس الديانات الأخرى السرية. لم يكتفِ هو وزوجته، أن يكونا حاكمين مطلقين لإمبراطورية واسعة الأرجاء، بل اختارا أن يقدّما نفسيهما كجوبتير (Jupiter)، كبير الآلهة على كل الأرض، وكجونو (Junon)، ملكته. فبعد أن تخلّص من منافسيه على السلطة، جلس سفيروس على العرش الإمبراطوري وحكم كل العالم المعروف آنذاك. ثم انكبّ بصرامة ومن دون رحمة على إطفاء كل شرارة من شرارات الحرية التي كانت لا تزال موجودة في أراضي سلطانه. إن تأليهه لنفسه، وسلطانه المطلق، جعلاه يركب متن الغرور، فبدأ يطلب من الناس خضوعاً مطلقاً لنزواته المفرطة التي لا تطاق،

وقد تملّكه شكٌّ عارم في أن المسيحيين لا يمكن الركون إليهم في تحقيق أوامره.

وقد غضب سفيروس، بصورة خاصة، بسبب حادث وقع في الشرق، ولكن أخباره انتشرت في كل أنحاء العالم، وترك أثراً عميقاً في كل مكان. فبمناسبة رفع لقب ولديه الاثنين كاركلاّ (Caracalla) وغيتا (Geta) إلى اللقبين الإمبراطوريين أوغسطس وقيصر، وزّع سفيروس عطايا سخية على جنود جيشه الذين قدموا لتسلمها لابسين أكاليل من الغار. ولكنّ واحداً من هؤلاء الجنود بدا مختلفاً عن رفاقه، إذ كان رأسه عارياً وإكليله في يده. وعندما سُئل عن السبب أجاب قائلاً: «أنا مسيحي.»[108]

اعتُبرت مثل هذه الوقاحة تحدّياً صاعقاً لكبرياء سفيروس. فأصدر مرسوماً في العام 202 يمنع فيه الناس من اعتناق أي من الديانتين اليهودية والمسيحية، وذلك تحت طائلة الموت. وقد جاوز الرسميون تعليمات الإمبراطور هذه، ساعين، كما يفعل أمثالهم، لإعطاء رؤسائهم انطباعاً يبيّن مقدار كفاءتهم. فبدأوا باقتلاع هذا الدين الجديد من الجذور. وكانت بربيتوا وزملاؤها في قرطاجة من بين الذين عانوا، كما كان هناك آخرون كثيرون غيرهم في شمال إفريقيا.

ظهرت ضراوة هذا المرسوم على أشدّها بعيداً بمحاذاة الشاطئ المتوسطي لمدينة الإسكندرية، حيث جُرّد ليونيدس (Leonides)، والد العالم اللاهوتي المعروف أوريجانوس، من جميع ممتلكاته ومقتنياته، وسيق للموت مع أعضاء آخرين من الكنيسة هناك. كان ليونيدس قد نشّأ أولاده السبعة، والذين كان أوريجانوس أكبرهم سناً، بكثير من الاهتمام العميق بهم والصلاة كما علّمهم التمييز بين الصالح والطالح، حتى يتمسكّوا بالأول ويتجنّبوا الثاني. وكان قد علّمهم أن يستظهروا جزءاً يسيراً من الكتاب المقدس يومياً. وعندما سمع أوريجانوس أنّ أباه اعتُقل، قرر، وكان حينئذٍ يبلغ من العمر السابعة عشر، أن يذهب إلى المدرج، وإلى الموت مع والده إذا اقتضت الضرورة. ولكنّ أمه، وقد آلمها جداً أن تفقد كلاً من زوجها وابنها في يوم واحد، خبأت

108- Lloyd p. 38، Tertullien De Corona Militis 1

ثياب أوريجانوس، الأمر الذي ألزمه البقاء معها في البيت. وكل ما استطاع أوريجانوس أن يفعل إذ ذاك، هو الكتابة لأبيه في السجن متوسّلاً إليه ألا يخاف على أرملته وأيتامه، وليثق بأنّ الله قادر على أن يعيلهم ويرعاهم.

وعندما مات ليونيدس، تُركت العائلة بحالة فقر مدقع، ومع هذا لم يخبُ إيمان أوريجانوس. فقد أخذته إلى بيتها أرملة مسيحية طيّبة، تملك مالاً وأرزاقاً خاصة، وكان حبه لكلمة الله شديداً، وحماسته على طريق الله قوية، بحيث أنّه عُيّن معلّماً وعميداً لكلية يحضرها الشباب المسيحي في الإسكندرية ولمّا يتجاوز عمره الثامنة عشر بعد. وقد عمل بإخلاص كرئيس لهذه المدرسة لمدّة تقرب من الثلاثين عاماً، وكانت محاضراته شعبية. كما كان يتمتع بموهبة خاصة لرفع حماسة تلاميذه. ولم يكن أوريجانوس، بأي حال من الأحوال شخصاً نظرياً جامداً، فهو كان يسعى لإطاعة كلمة الله، والسير بهدايتها يوماً فيوماً. وفي قراءته للعهد الجديد، تأثّر بصورة خاصة بكلمات المسيح القائلة: «مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا.»[109] فشعر بأنه إنْ أراد أن يطيع هذه الكلمات، يتوجب عليه ألاّ يتقاضى أجوراً عن تعليمه للمبادئ المسيحية. وفي سبيل تأمين معيشته، باع كمية من رقوقه المنقولة بخط يده. لكنّه عيّن لنفسه حصة صغيرة يومية من محصول هذا البيع، والتي كانت بالجهد تسدّ احتياجاته لأجَل قصير. بالرغم من أن طعامه كان بسيطاً جداً، وكان لا يمتلك إلا معطفاً واحداً. فكان يعاني قسوة الشتاء وزمهريره، وينام على الأرض المجردة. وقد فعل ذلك لا لشيء، إلاّ ليتشبّه بسيده المسيح الذي قال عن نفسه أنْ ليس له أين يسند رأسه.[110]

بعد ذلك بوقت قصير، ألقي القبض على عدد من تلاميذ أوريجانوس، وأُعدموا بسبب إيمانهم، وكان أوريجانوس حاضراً معهم خلال المحاكمة. وقد عامله الجماهير الإسكندرانيون المضطربون بقسوة وخشونة، إلا أنّ حياته لم تتعرض لسوء في تلك المناسبة. وبمرور السنين أصبح معلماً مشهوراً في كنائس الإسكندرية، وبعدها في كنائس قيصرية في فلسطين. وقد

109- (متى 10: 8)
110- (لوقا 9: 58)

سافر مراراً بعد ذلك في رحلات لخدمة المسيح. كما كتب عدداً من الكتب اللاهوتية، وقاد عدداً من اليهود والوثنيين إلى الإيمان المسيحي. ومع ذلك، فقد اعتُبرت بعض أفكاره الفلسفية وتفاسيره الرمزية للكتاب المقدس، مثاراً للجدل إلى يومنا هذا.

لم ينسَ أوريجانوس قط تعليم الكتاب المقدس والمثل الصالح الذي أخذه عن والده. لقد بقي ليونيدس غير معروف تقريباً، ولكن تأثيره أعطى الخلاص للكثيرين من خلال عمل ابنه الذي اقتفى آثار أبيه. الأول دُعي للموت من أجل المسيح، والآخر دُعي ليحيا له.[111]

استمر الاضطهاد في أجزاء عديدة من الإمبراطورية الرومانية، وكان قاسياً جداً لدرجة اعتقد معها الكثيرون أن سفيروس هو المقصود في الكتاب المقدس بـ«ضد المسيح» العظيم الذي سيقوم محاولاً أن يبيد كنيسة المسيح قبل رجوع المسيح ونهاية العالم.[112] ويبدو أن سفيروس قد ظنّ أنه بمرسومه الظالم ذاك، قد نجح في تحطيم معنويات المسيحيين، وأن يدمّر كنيسة المسيح تماماً. وقد تمّ تجاهل المسيحيين بشكل كبير خلال بقية حكم سفيروس، وحتى خلال أيام خلفائه التاليين.

ثم عرفت الكنائس السلام والحرية من النزاعات، لما يقارب النصف قرن. وهكذا ازدهرت بهدوء. ولكنْ، هنا، كان يكمن الخطر المُهلك. فقد بدأ العديد من المسيحيين بالتراخي والاشتراك أكثر فأكثر وبمزيد من التساهل في ملذات حياة المدينة وفي تسلياتها الموهنة. وشيئاً فشيئاً بدأ المسيحيون يفقدون ضبط النفس، وخسروا ذلك الشعور بكونهم شعباً خاصاً. كما ذهب عنهم ذلك الثبات، والإيمان السماوي الراسخ الذي قوّاهم ودعمهم خلال تلك الأزمة الرهيبة التي عاشوا خلالها بنجاح منقطع النظير لخمسين عاماً خلت.

ومع مرور القرن الثالث، بدأ المسيحيون ينشدون صداقة جيرانهم

111- للإطلاع على حياة أوريجانوس وعمله راجع:
Schaff HOTCC Vol. pp. 785 ـ796
Foakes ـ Jackson pp. 273 ـ277

112- 2 (تسالونيكي 2: 3و4)، (يوحنا 2: 18)، (رؤيا 13: 5-8)

الوثنيين ورضاهم، وتركوا أنفسهم، وللأسف، غير مستعدين للصمود في وجه الضغوطات الكبرى التي كانت بانتظارهم.

الفصل العاشر

المدن الحارقة

فــي العام 249م بدأت غيوم العاصفة تتجمّع من جديد. فقد ضاق صدر الإمبراطــور الجديد دكيوس (Decius) وازداد قلقه باطّراد، بســبب تفسّــخ الإمبراطوريــة الرومانية، فضلاً عن تخلّفها العســكري. وقــد عزا الإمبراطور ضعف الإمبراطورية و وهنها إلى اســتياء الآلهة. كان يأمل إعادة الازدهار إلى الأراضي الخاضعة لســلطانه وسيطرته عندما أصدر مرسوماً دعا فيه جميع المواطنــين، رجالاً ونســاءً، إلى تقريب الذبائح للآلهة بشــكل علني، وتســلّم شهادة من المسؤولين المحليين تثبت أنهم فعلوا ذلك.

وعلى هذا الأســاس أُخرج المســيحيون من بيوتهم، ودُفعوا بخشونة إلى الســاحات العامــة، وأُمــروا بتقريب الذبائــح. فبعضهم، ممّــن رُوِّع بالتهديد، أذعــن لأوامــر الإمبراطور، ولاســيّما أولئــك الذين كان ولاؤهم المســيحي قد ضعف خلال أيام الســلام السابقة المضعفة. فأسرعوا إلى المعابد استجابةً للأمــر الإمبراطوري، بينما قام آخرون، من طريق التآمر مع المســؤولين، بشــراء شــهادات مــن دون أن يكونوا قد قامــوا فعلاً بتقديم القرابــين المطلوبة. إلاّ أن عــدداً كبيراً منهم رفضوا الإذعان لمثل هذا المرســوم فهلك الكثيرون منهم. وكان أوريجانوس من بين الذين ثبتوا، فسُــجن وعُذِّب في مدينة صور. وهكذا استُشــهد متأثّــراً بجراحه من جــراء التعذيب الوحشــي. وكان عمره يناهز الســبعين. ولكن يلاحظ أن المســيحيين لم يعودوا يُتّهمون بعد بالقتل وزنى المحارم والفساد، ذلك لأنّ نقاوتهم و أخلاقياتهم الشريفة، كانت معروفة لدى الجميع. منذ ذلك التاريخ، أصبح جليّاً أن الســبب وراء معاداتهم هو رفضهم للإذعــان لمتطلبات العبادة الوثنية، لا التهم بارتكاب أعمال الســوء الموجهة ضدهم.

كتــب كبريانــوس (Cyprien)، ناظــر كنيســة قرطاجة، مطــوّلاً عن الاضطهــاد الــذي تحمّلــه المســيحيون، وكان الكثيــرون بينهم ممــن عرفهم شــخصياً. وقد سُــجن عدد منهم فــي قرطاجة نفســها، بينهم النســاء والأطفــال، ومات بعضهم من جــرّاء التعذيب. وحــدث أن كان أحد هؤلاء في

روما. ويدعى كلرينوس (Celerinus) حين صدر مرسوم ديسيوس. وقد تحمّل كلرينوس الأذى والتعذيب هناك، من دون أن يتراجع. وأخيراً، استُدعي للمثول أمام الإمبراطور نفسه، حيث اعترف بإيمانه المسيحي بكل ثبات. وقد كتب عنه كبريانوس قائلاً: «لقد كان أول هؤلاء الذين واجهوا المعركة في أيامنا... لقد مشى في مقدمة الصف ليواجه الحاكم نفسه، ذلك الحاكم الذي اختلق النزاع.» احتُجز كلرينوس تسعة عشر يوماً في زنزانة السجن مثقلاً بالسلاسل الحديدية. وقد كتب كبريانوس قائلاً: «كان جسمه مصفّداً مغلولاً، أمّا روحه فكانت متحررة من الأغلال. لقد ذبل جسده من جرّاء افتقاره الطويل إلى الطعام والماء، ولكن نفسه عاشت بالإيمان وباستقامته، والله كان يغذّيه بالطعام الروحي. ففي مواجهة البلوى، كان كلرينوس أقوى منها، وفي سجنه، كان أنبل من سجّانيه، وفي تمدده على الأرض، كان مارداً يضارع معذبيه الواقفين فوقه، وفي الأصفاد، كان أقوى من أولئك الذين قيّدوه، وفي محاكمته، كانت له وقفة أشرف من تلك التي لقضاته، وعلى الرغم من أن قدميه كانتا مقيّدتين، فقد استطاع أن يسحق رأس الأفعى.»

لقد نجا كلرينوس من محنته، وعاد إلى إفريقيا الشمالية، حيث استمر يخدم كقارئ (إذ كان يتلو آيات الكتاب المقدس في الاجتماعات) في كنيسة قرطاجة. هذا، وأن نُدباته وآثار جراحه الكثيرة كانت موضوع إعجاب المؤمنين هناك، إذ أدهشهم أن يصمد إنسان من أجل الإيمان، إزاء تعذيب وحشي بهذا المقدار، غير خاضع أو مستسلم، لا للموت ولا للأكاذيب. وأشار كبريانوس إلى أنه «إذا ما رفض شخص ما أن يؤمن بما يسمع كما رفض توما (أن يؤمن بما سمع عن المسيح)، فعندئذٍ لابدّ من أن يصدّق شهادة ما يراه بأم عينيه، إذ يرى البرهان الحي على صحة ما نقول.»[113]

شاب آخر يُدعى أوريليوس (Aurelius)، واجه المحاكمة ذاتها في قرطاجة. وقد جيء به أمام قضاة المدينة للمرة الأولى، حيث عومل بخشونة، وقد صدر الحكم بإبعاده عن المقاطعة. ولم تمضِ إلاّ فترة وجيزة، حتى جيء بهذا الشاب مرة ثانية ليمثل أمام الوالي، وقد عومل ثانيةً معاملة أكثر

113- Cyprien Epitre 33 , Monceaux Tome II p. 137

وحشية وعنفاً وقسوةً. وكتب عنه كبريانوس قائلاً: «إنّ هذا الشاب ناضل في معركتين، واعترف بالمسيح مرتين، وفي المرتين خرج بمجد الاعتراف المنتصر: بعد انتصاره الأول نُفي إلى خارج البلاد. ثم دخل المعركة مجدّداً، لكي يواجه نزاعاً أعنف هذه المرة، وهكذا انتصر من جديد. لقد خرج من معركة الشهيد منتصراً. ففي كل مرة يحاول عدو الله تحريض عبيده على فعل الشر، إن جندي الله الذي هو أبداً مستعد وأبداً شجاع، يصمد في وجهه. وهكذا يحرز الانتصار. لم يكتفِ هذا الشاب المسيحي بأن يناضل مرة واحدة في حضور بعض الناس حينما حُكم عليه بالنفي. لقد استحق أن يقاتل في الساحة العامة، حيث رأى الجميع شجاعته وإقدامه. فبعد القضاة، كان عليه أن يقهر الوالي، وبعد النفي، كان يحتاج أن ينتصر على التعذيب والتنكيل.» وقد نجا أوريليوس بنفسه، كما نجا سلفه كلرينوس، وأصبح هو الآخر قارئاً في كنيسة قرطاجة.[114]

وفي الوقت نفسه تقريباً، أصبح اسم نوميديكوس (Numidicus) مشهوراً في الأوساط المسيحية، كمن رأى أمتعة وقد حرقت، ولكنه نجا «كما بنار»[115] كان نوميديكوس عضواً محبوباً جداً في كنيسة قرطاجة. وكان مصدراً عظيماً لتقوية زملائه هناك وذلك بفضل قدوته أمامهم وتشجيعه لهم. في تلك الأيام، سخط رعاع قرطاجة على المسيحيين متّهمينهم بجلب سوء الحظ. لذا، كانوا يقذفونهم بالحجارة، أو يحرقون كل من يقع في أيديهم. كان نوميديكوس وزوجته من بين أولئك الذين وقعوا في أيدي الحشود الهائجة، فأخذوهما بعيداً. رأى نوميديكوس بأم العين زوجته المسكينة وهي تحترق بجانبه بلهب النيران المستعرة. أمّا هو فكان مثخناً بالجراح والحروق البالغة، فظنوه ميتاً وبالتالي تركوه. إلاّ أن ابنته التي حضرت إلى المكان تفتش عن جثة أبيها بين الأنقاض المحترقة، وجدته، وهو لا يزال حياً، فتمكّنت من إعادة العافية إليه. وبعد شفائه التام، عاد إلى الكنيسة في قرطاجة، حيث أصبح مساعداً مسؤولاً في إدارة كنيسة قرطاجة.[116]

114- Cyprien Epitre 32 , Monceaux Tome II p. 137
115- (كورنثوس 3: 15)
116- Cyprien Epitre 34 , Monceaux Tome II p. 138

لقد لجأ كل من كلرينوس و أوريليوس و نوميديكوس من الاضطهاد الذي مارسه ضدهم ديسيوس. ولكن كثيرين خرّوا صرعى. لقد تسلّم كلرينوس كتاباً من أحد أصدقائه المدعو لوكيانوس (Lucianus)، مرسلاً له أخبار زملائه في الأسر والمعاناة. علم من الرسالة، أن اثني عشر من المؤمنين في السجون، قد لقوا حتفهم بسبب الجوع والعطش، وأن اثنين آخرين ماتا في قرطاجة بسبب التنكيل، وهما بولس (Paulus) ومابالیكوس (Map-palicus)، وقد أضيف اسماهما بكل حرص إلى هذه اللائحة المتنامية من الشهداء.[117]

وفي ذلك الوقت، جُرّد العديد من المسيحيين الأكثر قوة من أملاكهم، وأُبعدوا من الأصقاع الرومانية. لقد وجدوا سبيلهم إلى القرى الداخلية، بعيداً عن المدينة، وعن متناول أيدي الرسميين الإمبراطوريين. فأسسوا هناك جذوراً، وبدأوا حياة جديدة. قد يتحسّرون على رفاهية الحضارة، ويشعرون بافتقارهم إلى المداخيل المعيشية الثابتة، ولكن، لابدّ من أنهم فرحوا كثيراً بحرّية العبادة بالشكل الذي يريدون، وواضح، فوق ذلك، أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإيمانهم لأنفسهم، إذ سرعان ما سمع الأمازيغيون في المناطق الداخلية بالرواية التي سردها لهم أولئك اللاجئون، ما حدث لهم بالتفصيل، ولماذا أُجبروا على ترك ديارهم وأملاكهم ومقتنياتهم، والحافز الذي رسّخ فيهم مثل هذا الإيمان والفرح، الإيمان الذي كانوا على استعداد دائم ليبذلوا في سبيله كل شيء.[118]

كان الإمبراطور ديسيوس، بغير قصد منه، سبباً لكثير من الناس، ليستمعوا إلى بشارة الإنجيل للمرة الأولى، ولاسيّما في المقاطعات النائية جداً عن المدن الساحلية. لكن ديسيوس نفسه لم يعرف هذا قط. وبخذلان آلهته له، قُتل ديسيوس في معركة خاضها ضد القوطيين في العام 251 ميلادية ولم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات. بعد موته، تنفّست الكنائس المسيحية الصُعداء، وبجردةٍ لحساباتها، وجدت نفسها تخرج من وطيس

117- Cyprien Epitre 8
118- (فيلبي 3: 8)

المعركة قوية وأكثر صلابة بفعل نيران المعاناة. لقد وجدت نفسها حرّة مرة جديدة من التأثيرات المضعفة لأولئك المسيحيين الاسميين الذين كانوا يعيشون في وسطها. كما ابتهجت بأبطالها الجدد، وبثباتهم الجيد. أمّا الناجون، فقد ازدادوا جميعهم عزماً على إتبّاع المسيح في السراء والضراء، في الضيق والفرج، في الموت أو الحياة، وهم مصممون أن يبقوا مخلصين له، مهما حدث.

* * * * * * * * * * * * * * *

ولكن، لماذا ثار المجتمع الوثني ضد المسيحيين بهذا الشكل؟ وأيّ أذى لحق بمواطني قرطاجة وروما على أيدي هذا الشعب المسالم؟ وكيف أساءوا إليهم؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال، يكفي أن نواجه حقيقة أن المسيحيين يختلفون عن غيرهم، فهم لم يتصرفوا كأناس اعتياديين، وهكذا كان الغموض يلفّهم في نظر بقية الناس، ولأنّ تصرفاتهم لم تكن عادية، لذا لم يكن سهلاً التنبؤ عنها، وعليه، فهم يدعون إلى الريبة والشك، سواء بالنسبة إلى الحكام والمسؤولين، أم إلى جيرانهم من المواطنين.

منذ الأيام الأولى للمسيحية، راح الناس يتناقلون شائعات غامضة عن المسيحيين: تُرى، ماذا يهيئ المسيحيون في اجتماعاتهم السرية؟ لمَ لا يسمحون، إلاّ لأولئك العارفين أسرارهم، بحضور وجبات طعامهم الخاصة؟ ولأنّ اجتماعات المسيحيين كانت تُعقد خلف الأبواب المغلقة، ولا يُسمح بالدخول إلاّ لأولئك الأعضاء المعترف بهم، نتج من ذلك شتّى أنواع الافتراءات والشكوك. فهل المسيحيون يدبّرون للقيام بثورة أو عصيان ضد الإمبراطور؟ أم أنهم يتآمرون لتهديهم معابد الآلهة؟ وماذا يفعلون في أثناء ما يسمّونه «ولائم المحبة»؟

هنا تصدّى ترتوليانوس وزملاؤه لهذه التلميحات، مؤكّدين براءة المسيحيين. إنه يصف الشركة المسيحية المقدسة والخالية من أية أذية. ويذكر كيف أنهم بعد تناولهم ولائم الطعام المشتركة، لم يكونوا يمارسون شعائر دينية فاسقة، وإنما على نقيض ذلك إذ يعبدون الله، الذي كانوا يجتمعون باسمه.

«وكان هذا الاحتفال ينتهي كما ابتدأ، بالصلاة.» ثم يسأل ترتوليانوس قائلاً: «مَن مِن الناس تضرر بسبب اجتماعاتنا؟ فنحن مجتمعين، لا نفرق في شيء عنا ونحن متفرقين أحدنا عن الآخر. إننا كمجموعة، تماماً كما نحن أفراد. نحن لا نؤذي أحداً، ولا نجلب الحزن والأسى لأحد. لأنه عندما يجتمع الفاضل مع الصالح والحنون يلتقي الطاهر فلا يجوز أن يُدعى ذلك جماعة متمرّدة، وإنما شركة جديرة بالاحترام والشرف.»[119]

على أن السبب الأهم للكراهية الشعبية الموجهة ضد المسيحيين، كان على الأرجح لكونهم لا يشاركون في التسليات العامة – في بهرجات الأيام المقدسة الوثنية – ولأنهم متخلّفون عن حضور الحفلات التي تنظمها النقابات الوثنية العمالية. إن ما حيّر، بل أغضب معاصريهم من الناس لم يكن بسبب ما فعلوه على قدر ما كان بسبب ما رفضوا فعله. وقد انبرى ترتوليانوس مرة أخرى، يدافع عن المسيحيين، محاولاً شرح الأسباب فقال: «نحن لا شأن لنا بصخابة المباريات، ولا ببذاءة المسرح، ولا بوحشية الميدان.»[120] وقد أقّر ترتوليانوس بأنّ المسيحيين لا يشترون أكاليل الورود المألوفة لتزيين المعابد الوثنية، ولكنهم لا يريدون أن يكون عند أحد انطباع بأنّ المسيحيين معادون للعالم الذي يحيط بهم. فإن المسيحيين يشاركون في نشاطات الحياة اليومية بشكل كامل – في الدكاكين وفي الأسواق، في الساحة العامة وفي كل مكان سواء أفي المدن أو في الريف. والمسيحيون كانوا يعملون في الحقول والورش نفسها، وهم يأكلون في المطاعم نفسها، وهم يلبسون الثياب نفسها، ويطبخون أنواع الأطعمة نفسها، ويستعملون الأثاث نفسه، وهم محترمون وأصدقاء للجميع. ولم يُدِر المسيحيون ظهورهم لجيرانهم قط، ولا أساءوا ولا أهانوا الأمور المثمّنة عندهم.[121]

إلاّ أنه كان في مدن الإمبراطورية الرومانية وقراها أناسٌ ذوو نفوذ استفادوا شخصيّاً من الواقع القائم. وقد بدأوا يشعرون بأنهم مهدّدون جداً بسبب

119- Apologeticus 39
120- Apologeticus 39
121- Apologeticus 42

النمو السريع للجماعات المسيحية في وسطها. ولم يستطع الكهنة الوثنيون أن يخفوا استياءهم إزاء ما يحدث من تقلّص في نفوذ آلهتهم، وتراجع في عدد الذين يحضرون لعبادتها. فقد بدأت صناديق المال في الهياكل تفرغ باطّراد. وراح صنّاع الصور وأكاليل الغار يتذمّرون مهدّدين، كما حصل قبل عدة سنوات مع ديمتريوس الصائغ وصنّاعه في أفسس عندما بدأت عظمة الإلهة أرطاميس بالانخفاض من جرّاء كرازة الرسول بولس.[122] فجميع بائعي أدوات التزيين وأصحاب الحفلات الترفيهية التي كانت رائجة آنذاك، والمضيفين – من صانعي الجوهرات، والموسيقيين والراقصين، وكل المحترفين في المسرح، واللاعبين الرياضيين والمجالدين – كل هؤلاء وغيرهم، صاروا ينظرون إلى المسيحيين نظرتهم إلى الأعداء، لأنهم لم يحضروا معارضهم ولم يشتروا بضائعهم، بل تسببوا في انسحاب زبائنهم. كما أنّ بعضاً من المونتانيين الأكثر تطرّفاً، وبّخوا أحياناً أيضاً بشكل ساخر عبدة الأوثان هؤلاء على تفاهة تجارتهم الدينية، فسبّبوا بذلك إساءة، وجرّوا على الأحكم منهم من إخوتهم المسيحيين عاراً لم يكن ضرورياً.

كان الولاء للإمبراطور من القيم التي تمسّكت بها بحزم ودافعت عنها بحماسة، ليس طبقة النخبة الحاكمة فحسب، بل غالبية المواطنين أيضاً. لذا، فقد أسيء جداً فهم المسيحيين الذين لم يكونوا يتبعون مثل هذه العادات التي اكتسبت صفة الاحترام نظراً لقدمها. وهكذا أصبحوا مكروهين كرهاً شديداً، وباتوا في نظر القوم وكأنهم يحاولون تقويض أسس الحضارة الرومانية نفسها. فالمسيحيون لا يشاركون في الديانة الوطنية، وهم لا يقرّبون التقدمات ليضمنوا بذلك السلام والازدهار للأرض، ولا يطرحون البخور في المبخرة كعلامة الولاء للإمبراطور وآلهته التي جُعلت الإمبراطورية تحت رعايتها. وهكذا بدا المسيحيون وكأنهم اختاروا البقاء خارج المجتمع، يتمتعون بنعمه، ولكنهم في الوقت ذاته، يتملّصون من مسؤولياتهم. وقد وجد أعضاء الكنيسة الذين يمتلكون العقارات، صعوبة في تجنّب المشاركة في عبادة الأوثان: فمالكو الأراضي والمنازل، كان يُنتظر منهم أن يساهموا إلى

122- (أعمال 19: 23-27)

حد كبير بكلفة التقدمات العامة والمشاهد المسرحية. والعائلات المسيحية الموسرة، كانت بشكل خاص عرضة لخبث الحسّاد. إضافةً إلى الجواسيس الذين كان الأباطرة المشككون والمرتابون يستخدمونهم. ففي الواقع، إن أخطر التهم التي واجهت المسيحيين، باتت مجهولة هوية أصحابها. فإذا ما جاء شخص معروف بادّعاء تافه أو كاذب، قد يجد نفسه في ورطة بالغة الخطورة، ولكن متى كانت التهمة مجهولة هوية أصحابها، فإنه يتمكن بعدها من الإفلات من العقوبة بسهولة. وبهذا الأسلوب، تمكّن أعداء الإيمان من ارتكاب أشنع الافتراءات اللا مسؤولة. وأحياناً كان اليهود في غيرتهم على مركزهم المميّز كمنتمين إلى ديانة مسموح لها، يقفون في طليعة المهاجمين: مثلاً، كان لهم دور رئيس في استشهاد بوليكاربوس.

إضافةً إلى ذلك، يخبرنا ترتوليانوس، أنه استناداً إلى خبرته، كان المسيحيون مكروهين غالباً فقط بسبب محبتهم بعضهم لبعض. لقد عارض الوثنيون الطريقة التي كان المسيحيون يعاملون فيها بعضهم بعضاً كإخوة وأخوات، مساعدين أحدهم الآخر، وداعمين أراملهم وأيتامهم والذين كانوا في ضيق وعوز. «إن ممارستنا لهذا العطف الحب وتنفيذه عملياً هو الذي، بشكل رئيس، يسمنا بالعار في نظر بعض الناس.» يقولون: «أنظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضاً.» ذلك لأنهم هم أنفسهم يكرهون بعضهم بعضاً. ويقولون أيضاً: «أنظروا كيف أن المسيحيين مستعدون ليموتوا بعضهم لأجل بعض.» ذلك لأنهم هم أنفسهم أكثر استعداداً لقتل أحدهم الآخر. إنهم يجدون خطأ فينا أيضاً لأننا نطلق على بعضنا التسمية «أخ». أشعر أني متأكد أن السبب وراء انتقادنا هو التالي: كل تسمية صداقة عندهم ليست سوى مجرّد ادّعاء مزعوم ورخيص.»[123]

لقد حرصت الجماعة المسيحية كل الحرص على تكريم الإمبراطور، وعلى إطاعة القوانين، ودفع كل ما يترتب عليهم من ضرائب. فكلمة الله تقول: «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلاّ من الله

123- Apologeticus 39

والسلاطين الكائنة هي مرتّبة من الله.»[124]

وقد أسرع ترتوليانوس بالإشارة إلى أنّ المسيحيين لم يكن لديهم أية دوافع أو أطماع سياسية، وهم ليسوا بالتالي ثوّاراً ضد الحكومة والدولة. كانوا مسالمين شرفاء، وذوي احترام ووقار. فإنّ أفضل الأباطرة وأحكم المسؤولين، أضاف ترتوليانوس، كانوا يعلمون ذلك جيداً: لقد رأوا في المسيحيين تلك المزايا الرفيعة الخالصة التي ودّوا لو يجدون مثلها في جميع الخاضعين لهم.

الأباطرة الأشرار وحدهم اضطهدوا الكنيسة، تابع ترتوليانوس، وذلك إمّا لكونهم ضعفاء أو راغبين في تملّق الوثنيين المتطرفين، وإمّا لكونهم أنانيين للغاية يدفعهم مزاجهم بدل الحكم السليم. و ترتوليانوس نفسه خاطب الرسميين الرومان راجياً منهم التساهل مع المسيحيين وواعداً بتقديم الولاء بالمقابل.

إلاّ أنه في بعض الأحيان كان يجد المسيحيون أنّ واجبهم يجعلهم في نزاع مع السلطات. فإذا أعطوا ما لقيصر لقيصر، كان عليهم أيضاً أن يعطوا ما لله لله.[125] وحتى سلطة الإمبراطور نفسها كانت خاضعة لذلك الكائن الإلهي الذي خلق كل شيء. وبعض الظروف لم تترك لهم سوى خيار أن «يطيعوا الله أكثر من الناس.»[126] فهم لا يمكنهم أن يقرّبوا التقدمات للأصنام، مثلاً، حتى ولو صدر مرسوم ملكي يطلب مثل هذا العمل، ولا كانوا يستطيعون أن يسفّهوا اسم المسيح أو يلعنوه وبعضهم رفض القَسم القانوني، معتقدين أنه من الخطأ أن يُقسم المسيحي بمثل هذا القسم. فقد علّمهم الرب: «لا تحلفوا البتة، لا بالسماء... ولا بالأرض... لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير.»[127] ولم يستطع آخرون من المسيحيين أن يوفّقوا بين خدمة الجندية وضمائرهم المسيحية. إن مواقف رافضة كهذه، صبّت ولا شك الزيت على نيران الحقد.

124- (رومية 13: 1)
125- بالإشارة إلى (مرقس 12: 17)
126- (أعمال 5: 29)
127- (متى 5: 34-37)

كانت الطبقات العليا من الرومان، وعلى الأخص كبار الملاّكين، ينظرون بحذر إلى كل تعليم جديد قد يهدد وضعهم الراهن، ويعّرض غناهم ومراكزهم للخطر. فإن التعليم المسيحي القائل بالمساواة، لم يكن محبباً لدى الأوساط الأرستقراطية الوثنية الغنية. وهكذا حصل توتّر، خصوصاً في أيام الجفاف وندرة المؤن. شعر الوعاظ المسيحيون في أنفسهم بأنهم ملتزمون إلى حدّ قليل جداً بالموافقة على تلك الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء، وبخاصة عندما كان أصحابهم وجيرانهم يعانون الجوع والتشّرد. ثم راحوا، على غرار المسيح نفسه، يحثون أصحاب الكنوز على كنزها في السماء لا على الأرض، مستوحين ممّا يذكره العهد الجديد بشأن أشراك الغنى والبركات المعلنة للمحتاجين والمسحوقين. وقد لاقت هذه الأفكار آذاناً صاغية لدى الفقراء، ولكنها لم تلقَ شعبية عند المسؤولين الرومان. إن الرسميين المحليين، وكانوا في غالبيتهم من الطبقات الأرستقراطية، لم يتردّدوا قط في وضع موضع التنفيذ أي مرسوم إمبراطوري يعد باقتلاع هذه التعاليم من جذورها وتخريبها.

من الضروري أن نتذكر أيضاً أنه إلى جانب التشريع الصارم للمحاكم البلدية، وعداوة الرعاع التي لا يمكن التنبؤ عنها، كان المؤمنون معرّضين لمحاكمة عائلية برأسها رب العائلة وصلاحياته تكاد تكون لا متناهية. لقد كان بإمكان الزوج الوثني مثلاً أن يدين زوجته المؤمنة ويحكم عليها بالموت. ومعروف عن آباء أنهم حرموا أولادهم من الميراث، وأنهم فرضوا كل أساليب التعذيب على عبيدهم إذا اعترفوا بالإيمان المسيحي.

كانت القوات المجنّدة ضد الكنائس متنوعة وثقيلة. ومعظم الصعوبة تكمن في أنّ السلطات الرومانية لم تكن تعترف بالدين المسيحي رسمياً، لذا لم يكن يحق للمسيحي أن يدافع عن نفسه قانوناً أو شرعاً. ويذكر ترتوليانوس في هذا الصدد كيف أن الوثنيين كانوا أحياناً يوبّخون المسيحيين وبشكل ساخر قائلين: «بموجب القانون، أنتم لستم حتى بموجودين.» ولكنه، أيّ ترتوليانوس يردّ بالقول إنّ المسيحيين موجودون حقاً، سواء أشاء الوثنيون ذلك، أم أبوا. وإذا كان الأمر كذلك، فَمَن إذاً من الاثنين يكون بخلاف الحق:

المسيحيون أم القانون؟[128]

وقد يُسأل لماذا لم تسعَ الكنيسة المسيحية للحصول على اعتراف شرعي بها، خصوصاً وأن اليهود كانوا قد حصلوا على مثل هذا الاعتراف. العقدة تكمن في كون الرومان يعتبرون أنّ الديانة هي مسألة عِرقية، لا مسألة اقتناع شخصي. فاليونانيون كان لهم آلهتهم، وكذا بالنسبة إلى الرومان. وقال كلسوس (Celse) في معرض انتقاده للمسيحيين: «أمّا اليهود، فلا يمكن أن يلاموا، لأنّ على كل إنسان أن يعيش بموجب عادات بلده، بينما المسيحيون قد تخلّوا عن شعائرهم الوطنية بسبب تعاليم المسيح.»[129] على أن المشرعين الرومان اعتبروا أن ولاء الإنسان الأول ليس لضميره ولا لآلهته، بل للدولة. والإمبراطورية ادّعت لنفسها الحق بأن تقرّر لرعاياها أيّة آلهة يجب أن يعبدوا. ولم تكلّف الدولة نفسها عناء الاهتمام بالمعتقدات الخاصة التي يؤمن بها الإنسان، ولكنها فرضت عليه، بشدّة وحزم، أن يلتزم بشكل نهائي بحضور الطقوس العامة المختصة بديانة الدولة، وأن يُظهر بشكل واضح خضوعه وامتثاله. هذا، وإن إيماناً جديداً يمنع أصحابه من عبادة الأوثان كان من الطبيعي له أن يصطدم بنظام كهذا.

لا يمكن لحكومة كليانية أن تتفهم بسهولة فكرة وجود مواطن مخلص ينتمي إلى دينٍ مستقل. إلا أن ترتوليانوس ترافع أمام الحكّام الرومان ليعاملوا المسيحيين بالعدل إذ يمنحوهم فرصة فقط للتعبير عن وجهة نظرهم. فإذا حاولت السلطات، ولو فقط أن تكتشف ما الذي يؤمن به المسيحيون، فإنها ستتوقف عن صبّ جام غضبها عليهم. وفي الواقع، أضاف يقول، لن يجد المسؤولون شيئاً يلام المسيحيون عليه. يُسمح للناس المتهمين بجرائم العنف أن يدافعوا عن أنفسهم وليس هذا فحسب، بل أن يعيّنوا محامين محترفين للدفاع عنهم. «عندهم فرصة كاملة للردّ كما أيضاً لاستجواب الشاهد أو الخصم ابتغاء دحض شهادته، ذلك لأنه، من غير المسموح أن يدان الناس من دون سماع شهاداتهم أو قبول دفاعهم. أمّا المسيحيون، فهم

128- Apologeticus 4

129- (اقتبسها Foakes_Jackson p. 45), Origene Contra Celsum (5: 25)

وحدهم غير المسموح لهم بأن يقولوا أي شيء لتبرئة ساحتهم، وللدفاع عن الحق، ولإنقاذ القاضي من الظلم. فالقاضي همّه الوحيد إرضاء الجمهور الحاقد – أي الاعتراف باسم المسيح، لا استقصاء تهمة أعمال السوء.»[130]

واستطرد ترتوليانوس قائلاً إنّ كل هذا العداء، هو نتيجة التعصّب الأعمى عن جهل. فإذا ما توقّف الناس للحظة فقط، للتبصّر والنظر في حقائق هذه القضية، فإنهم سيرون الأشياء من منظار مختلف تماماً. «فكل الذين كرهوا، بسبب عدم معرفتهم حقيقة الأشياء التي كرهوها أو حقدوا عليها، سيتوقفون عن هذه الكراهية حالما يكفّون عن جهلهم هذا... الناس يصرخون قائلين إن الدولة قد امتلأت بالمسيحيين. فالمسيحيون في القرى والأرياف وفي الجزر أيضاً، والناس من الجنسين، ومن كل الأعمار، وفي كل الأوضاع، حتى من ذوي المراكز الاجتماعية العليا ينتقلون إلى المجتمع المسيحي. يولولون ويندبون بسبب هذه الأمور، كما لو أنّ هناك نكبة أو كارثة. لكنهم على الرغم من كل هذا ليسوا على استعداد أبداً للتفتيش عن بعض الحسنات فيها التي قد تكون قد فاتتهم.»[131]

أشار ترتوليانوس باستمرار إلى استعداد المسيحيين للموت عوضاً عن أن ينكروا إيمانهم، كان ثبات الشهداء من الأسلحة الرئيسة في جعبته. لقد تأيّدت حقائق التعليم المسيحي من خلال المواقف الثابتة لأولئك الذين تبنّوها: «اسألوا أنفسكم إذاً،» قال ترتوليانوس «عمّا إذا كانت ألوهية المسيح معتقداً حقاً أم لا. فإذا كان قبول مثل هذا الإيمان يؤدي إلى تغيير الإنسان فعلاً إلى الأحسن، يعني ذلك أنّ كل ما هو مخالف له يجب أن يرفض.» وقد أشار ترتوليانوس إلى الصمود وضبط النفس اللذين تميز بهما المسيحيون في أثناء المحاكمة، فإنهم لم يلجأوا إلى السلاح، ولا هربوا من السلطة الإمبراطورية. «كم مرة صببتم جام غضبكم على المسيحيين، أحياناً بسبب ميلكم إلى هذا وأيضاً بسبب امتثالكم للقانون. وكم مرّة أيضاً لم يُعركم رعاع الشعب المتعصّب انتباهاً، بل هاجمونا بالحجارة وبالنيران، وقد تجاوزوا القانون نفسه...

130- Apologeticus 2
131- Apologeticus 1

ولكن، مع كوننا متماسكين ومتحمّسين جداً لمواجهة الموت، هل لاحظتم أبداً عندنا أي انتقام على الإساءة؟»[132]

شعر معظم الولاة الرومان، أمثال بليني الأصغر (Pline le Jeune) بعدم تأكّدهم من الطريقة التي يجب أن يتبعوها هؤلاء المسيحيين الذين يمثلون أمامهم للمحاكمة. كتب بليني من منطقة بيثينية (Bithynie)، في شمال تركيا المعاصرة في العام 112ميلادي إلى الإمبراطور ترايان (Trajan) يسأله النصح والإرشاد. قال بليني: «إنها قاعدة عندي يا سيدي، أن أرجع إلى مقامكم في القضايا التي أشك فيها. لم أحضر في السابق محاكمة من محاكمات المسيحيين قط، لذا، لا أعرف ما هي العقوبات العادية المترتبة، أو ما هي التحريات، وإلى أيّ مدى يجري التقيّد بها. لقد ترددتُ كثيراً في ما إذا كان يجب أن آخذ أعمار المتهمين بعين الاعتبار أم لا، وما إذا كان الضعفاء يُعاملون بالطريقة نفسها التي يُعامل بها الأقوياء، أو إذا كان عليّ أن أسامح أولئك الذين يتخلون علناً عن معتقدهم المسيحي، أو ما إذا كان عليّ أن أعاقب من كان مسيحياً، حتى ولو قرّر التخّلي عن ذلك، وما إذا كان مجرد الاسم «مسيحي» كافياً ليُنزل العقاب بصاحبه، حتى ولو كان بريئاً من أية جريمة أخرى، أم الجرائم المتعلقة بهذا الاسم فقط.» والتساؤل الأخير في هذه القائمة من التساؤلات الطويلة أعلاه، كان مستمداً من الاعتقاد العام السائد بين الوثنيين، على الأقل في الأيام الأولى، أن المسيحيين كانوا يتورطون في جرائم قتل الأطفال، وأكل لحوم بشرية، وزنى المحارم، وتساءل بليني ما إذا كان اعتراف المتهم بمسيحيته يعني تلقائياً أنه مذنب بكل هذه الجرائم المذكورة آنفاً، أم لا؟

وأكثر ما يصدمنا بعنف من الوثائق عن الموضوع الذي نحن بصدده، هو أنّ الولاة والقضاة، أمثال بليني، والذين كانوا يحكمون على المسيحيين بشتّى أنواع التعذيب والتنكيل والقتل الوحشي أمام الملأ، لم يكونوا سوى مجرّد مأمورين مواظبين على القيام بواجبهم، وكانوا يحاولون على هذا الأساس تنفيذ مهمة إدارية إطاعة لتعليمات محدّدة، كان كل همّهم تأمين خضوع

132- Apologeticus 37

الشعب بشكل مسالم للقوانين المرعية بشأن الديانة المسموح بها في الدولة. وصحيح أنه غالباً ما كانت تعوزهم الشفقة والرحمة، لكنّ عملهم كان يفرض عليهم كبت أية مشاعر شخصية قد تتولّد عندهم. كانوا بالتأكيد، يفتقرون في معظم الأحيان، إلى الرغبة الشخصية في البحث عن الحقيقة، إلا أنهم، عموماً، لم يكونوا يضمرون العداء لأولئك الذين يسبّبون لهم هذه الآلام المفزعة والرهيبة. كانوا مجرّد ممثّلين غير جذابين عن نظام سياسي متوحّش ولا إنساني، في عالم رَخُصت فيه الحياة، وباتت البلوى الدموية التي يعانيها الآخرون، الستار الخلفي للحياة اليومية، ولنقل أيضاً، الوجبة المستخدمة باستمرار على نطاق واسع للتلهيات العامة.

أوجز بليني الإجراءات التي كان يتخذها في استجواب أولئك الذين يمثلون أمامه قائلاً: «أسألهم إن كانوا مسيحيين. وفي حال أقرّوا بذلك، أكرّر سؤالي مرة ثانية وثالثة مهدّداً إياهم بإنزال عقوبة الموت بهم. فإذا أصرّوا، أحكم عليهم بالموت، لأنني لا أشك مطلقاً في أنه مهما كانت جريمتهم التي اعترفوا بها، فإن مشاكستهم وعنادهم المتصلّب، وحدهما، كافيان للعقاب لا محالة.» لقد كان بليني نموذجاً لأولئك الذين يؤمنون بأن جريمة المسيحيين الكبرى تكمن في تحدّيهم للسلطة، وفي رفضهم الانصياع لأوامر الدولة، كذلك في عدم قبولهم التخلّي عن إيمانهم المسيحي عندما يصدر إليهم الأمر بذلك بصرف النظر عمّا إذا كان الإيمان حسناً أو سيئاً.

أخبر بليني الإمبراطور عن أوراق كاتبها مجهول وصلت إلى يده، وفيه مدّون العديد من أسماء المسيحيين. وقد استُدعي هؤلاء للمثول أمامه. قال: «وكل من أنكر كونه مسيحياً، وجدت أنه يجدر بي أن أطلق سراحه، لأن هؤلاء كانوا يدعون باسم آلهتنا عندما آمرهم بذلك، وهم، بالبخور والخمر، يبجّلون تماثيلك ويوقّرونها حيث كنت أُحضر صورتك (صورة الإمبراطور) بالإضافة إلى أصنام الآلهة لهذا الغرض بعينه، وبالأخص لأنهم لعنوا المسيح، ذلك الأمر الذي يقال إنّ المسيحيين الحقيقيين لا يمكن إقناعهم بالإقدام عليه... وآخرون ذكر المخبر أسماءهم قالوا أولاً أنهم مسيحيون ثم ما لبثوا أن أنكروا ذلك، إذ صرحوا أنهم كانوا مسيحيين في الماضي، ولكنهم الآن لم يعودوا كذلك...

لقد سجد الجميع وتعبّدوا لصورتكم وتماثيل آلهتنا، ولعنوا المسيح.» ولكن، حتى بليني نفسه كان يعلم أن هؤلاء القوم لم يكونوا المسيحيين الحقيقيين، لأن سلوك هؤلاء الذين تبعوا المسيح بجديّة كانت معروفة بخلاف ذلك. وقد لاحظ بليني بالاختبار، أن لاشيء يحمل المسيحيين الحقيقيين على لعن مخلّصهم.

انتزع بليني الاعترافات انتزاعاً من بعض هؤلاء، إلاّ أن هذه الاعترافات جاءت خالية من الرذائل المروّعة التي كان يأمل أن يسمع عنها. لم تكن إساءاتهم، في الواقع، ممتعة ولا مشوّقة على الإطلاق. «لكنهم أعلنوا أن مجموع أخطائهم هو التالي: إنهم في يوم معيّن، كانوا قد اعتادوا أن يجتمعوا قبل الفجر، ويرتّلوا تراتيل إيقاعية للمسيح، باعتباره إلهاً، وأن يربطوا أنفسهم بتعهّد مقدس جليل – لا للتعهّد بالتورط في جريمة معيّنة أو أخرى، بل بالحري للامتناع عن السرقة والسلب والزنا والإخلال بالوعود، أو التنكّر لوديعة وقت المطالبة بها. وبعد ختام هذا الاحتفال اعتادوا أن يتفرقوا على أن يجتمعوا ثانية إلى مائدة الطعام، لكنه كان مجرّد طعام عادي ولا يشكّل أي أذى.»

لقد وجد بليني أن هذا البيان البسيط من الحقائق غير وافٍ، فواصل عمله مظهراً بذلك القلب القاسي عند الإداري الإمبراطوري: «لهذا وجدت أنه من الضروري، أن أتحرّى مدى صحة كل هذا، وذلك بتعذيب خادمتين كانتا تُدعيان مساعدتين. ومع ذلك لم أجد شيئاً سوى خرافات فاسدة ومتمادية في الوهم، وهكذا قمت بتأجيل جلسة الفحص والتمحيص هذه، وقررت استشارتكم.»[133]

لم تكن السلطة ترغب في قتل المسيحيين، وإنما كانت ترغب في إعادتهم إلى عبادة الآلهة الرومانية، ولم يكن في نية السياسة الإمبراطورية إخلاء الكنائس من رعاياها، بل إعادة ملء المعابد الوثنية. ولم تكن تنوي تغيير المعتقدات الدينية عند الناس، بل ضمان طاعتهم وليونتهم. كان الأباطرة يعلمون دائماً في قرارة نفوسهم، أنّ إفريقيا هي جزء غير مستقر

133- Epitre 10 (Ad Trajan), 96 (Bettenson DOTCC pp. 3-4)

من الإمبراطورية الرومانية. ففيها المئات من القبائل، وجميعهم أعداء محتملون، وهم يعيشون على مسافة قصيرة داخل البلاد، وراء حدود كان من غير الممكن الدفاع عنها عسكرياً ضد مهاجمين محدّدين. عاش الحكام في قلق مستمر، إذ كان عليهم التعامل مع أية مؤشّرات بعيدة لفوضى أو فتنة، و وأدها في مهدها في هذه المقاطعات الصعبة قبل أن تشكّل خطراً سياسياً جديّاً.

إن أية أمة هي متماسكة معاً بفضل وحدتها الدينية، وتسيطر على شعبها بواسطة كهنوتها الرسمي، لابدّ من أن تشعر بتهديد مباشر من أقلّيات قرّرت أن تخرج عن الدين الوطني. فإنْ بقيت هذه الأقلية متوارية عن الأنظار، وتمتثل من الخارج لمتطلبات حفظ الشعائر الدينية، فإنها غالباً ما تُترك في سلام. ولكن حالما تعترف هذه الأقلية جهراً أنها لم تعد تخضع لسلطة هذا البلد الدينية، فإن الدولة عندئذٍ، تفقد نسبة من سيطرتها على هذا الشعب. وما أن تصبح هذه الأقلية قوة حتى إن الجميع يعرف أنها تقدّم بديلاً عن السلطة الدينية القائمة، تبدأ تهدّد إذ تجتذب عدداً كبيراً إلى صفّها. وهكذا تتحوّل أقلية شجاعة ومتنامية إلى أغلبية ساحقة في حال لم يعمل أحد على إيقافها.

هذه كانت من جملة الأسباب الموجبة التي جعلت السلطات الرومانية تحاول يائسةً استئصال الكنائس الفتية في شمال إفريقيا. لكنّها لم تدرك إلاّ القليل أي فشل ذريع سيصيبها. فقد كُتب لكنائس إفريقيا الشمالية أن تصمد إلى ما بعد زوال أعظم إمبراطورية كانت مقتدرة عسكرياً ولم يرَ العالم لها مثيلاً.